العشر من ذي الحجة وخطة سباستيان

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 18 يوليو 2021

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

يقال إنه في عام 2012 عزمت سلسلة محلات ألمانية شهيرة (ساتورن Saturn) أن تفتتح فرعها الـ150 في ألمانيا، فقامت كنوع من الحملة الإعلانية بعمل مسابقة كبيرة جدًا ونشرتها على وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الأخرى، وبدأ الناس يشاركون في المسابقة وبعد حوالي شهر من طرح المسابقة فاز عدد كبير من الفائزين وكانت الجائزة أن يُسمَح لهم بدخول المحل لمدة 150 ثانية يأخذ كل شخص منهم كل ما يريده مجانًا، من دون أن يدفع شيئًا أيًا كان السعر.

وفي اليوم المحدد كانت هناك تغطية إعلامية رهيبة، وبدأ العد التنازلي للـ 150 ثانية، وبدأ الفائزون يدخلون واحدًا تلو الآخر يأخذون ما يريدون ثم يخرجون. هناك مَن كان يركض ويقع، وهناك مَن يأخذ حاجات لا يحتاج إليها ثم يرميها ويأخذ حاجات أخرى، وآخرون يأخذون أي شيء يجدونه أمامهم، وأكثرهم خرج بحاجات غير ذي قيمة، أو لا يحتاج إليها أصلاً.

لكن العجيب أن كان من ضمن الفائزين شاب ألماني يدعى (سباستيان)، هذا الشاب دخل بمنتهى السرعة والنظام والتركيز، وكأنه يعرف تماماً ماذا يفعل، فأخذ شاشات كبيرة وسحبها إلى الخارج، موبايلات، وأجهزة وحواسيب وأجهزة من كل الأشكال والألوان، ومن أفخم الماركات وأغلى الأسعار، وكان يضعها فوق بعضها بترتيب عجيب ويخرج بها ويضعها على الأرض، ثم يدخل مرة أخرى، والناس كانت تتعجب من أدائه واختياراته، لدرجة أنه في آخر الأمر استطاع أن يسحب ثلاجة ويخرجها.

وبالفعل انتهت الـ 150 ثانية وخرج سباستيان وسط تهليل فظيع من الجمهور، وسقط على الأرض من شدة الإعياء. فقام المسؤولون عن المسابقة بتقدير قيمة الأجهزة التي أخذها سباستيان في الـ 150 ثانية، فكانت حصيلتها ما يزيد على 29 ألف يورو، في دقيقتين ونصف ربح هذا الشاب حوالي 29 ألف يورو، فكيف فعل ذلك ؟

بعد انتهاء المسابقة أجروا مع سباستيان لقاء وسألوه عن هذا الفعل وطريقته في جمع كل هذه المواد والأجهزة، فقال ببساطة: نجحت خطة سباستيان، فعندما سأل عن معنى قوله هذا ؟

قال: منذ أن سمعت عن المسابقة، تخيلت نفسي عندما أفوز ما الذي ينبغي عليّ فعله حتى أفوز بأكبر قدر ممكن من المنتجات، فما كان مني إلا الذهاب إلى هذا المحل يومياً، وأخطط وأحفظ أماكن البضائع الغالية الثمن التي أريد أن أحصل عليها، وأرتب مساري وأولوياتي وطريقي داخل

المحل الكبير لأعرف كيف أخرج بأكبر قدر من المكاسب خلال الـ 150 ثانية هذه، ومن ثم عندما وقع عليَّ الاختيار كنتُ جاهزًا.

فعلاً نجحت استراتيجية سباستيان فخرج بنصيب الأسد من الجائزة.

ولكن السؤال المهم الذي يجب أن نجيب عليه؛ هل الشاب سباستيان أفضل منا في التفكير والتنظيم ؟

نحن نعيش هذه الأيام أيامًا عظيمة، وهي العشر الأوائل من ذي الحجة، وهي أيام أقسم بها اللّه سبحانه وتعالى، وهو العظيم الذي لا يقسم بشيء إلا لأهميته، ربما هذه الأهمية تأتي من كون هذه الأيام شهدت الكثير من الأحداث على مر التاريخ، وهي أيام قصيرة سيتم تتويجها بأيام الحج، ذلك المؤتمر الإسلامي العظيم، الذي يجتمع فيه المسلمون من كل حدب وصوب، لملاقاة اللّه سبحانه و تعالى.

لنعتبر هذه الأيام العشرة، وتحديدًا يوم عرفة، أيام إعادة شحن أنفسنا وأرواحنا، فكل شيء في هذا الكون يحتاج إلى وقفات لإعادة ترتيب نفسه وفكره، وحتى الإنسان يحتاج إلى إعادة التفكير في نفسه، وفي الأوقات التي ضاعت من حياته من غير أن يستفيد منها، في الفرص الكثيرة التي لم يتمكن من استغلالها أو حتى الالتفات لها على الرغم من أنها تساقطت من بين أصابعه كما تتساقط قطرات الزئبق من بين اليد.

جزء كبير من حياتنا، وأيام وشهور تأتي وتختفي من غير أن نشعر، وعندما نبلغ الخمسين أو الستين، نجلس نتحسر على الأوقات التي ضاعت، ولكنها ضاعت وتبخرت، ونرجو أن تعود تلك الأيام، فنقول "لو عادت تلك الأيام لعرفنا أن نستثمرها وأن نستفيد منها"، لكنها لن تعود.

ولكن ماذا لو قلنا لك إن تلك الأيام – في الحقيقة – قد عادت، وإن أمامك فرصة يمكن أن تستفيد منها وتستثمر وتستفيد من كل ما ضاع، خلال أيام لا تتجاوز عشرة أيام فقط، وهذه العشر من ذي الحجة ويوم عرفات تحديداً، فماذا يمكن أن نفعل في هذه الأيام ؟ وكيف يمكن أن ندخل هذه الدورة التدريبية القصيرة جداً من عمر الزمن حتى نخرج بنصيب الأسد من الفوائد والثروة كما استفاد سباستيان من المسابقة التي دخل فيها ؟

تخيل أنك أمام سلم مكون من 6 درجات، كل درجة تمثل خطوة عملية يمكن القيام بها في يوم من الأيام العشرة من ذي الحجة، في نهاية السلم؛ أي في قمة السلم وهو الهدف الذي نسعى إليه توجد لافتة مكتوب عليها "رضا اللّه سبحانه وتعالى" بمعنى الإشباع الروحاني والجسدي والوجداني والفكري، فهل يصعب علينا الوصول إلى الهدف المنشود خلال الأيام العشرة ؟ وهل يوجد إنسان لا يسعى إلى رضا اللّه سبحانه، فحتى فرعون آمن في لحظاته الأخيرة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكن كان ملف التوبة قد أقفل.

إذن، لنصعد السلم، درجة درجة حتى نصل إلى قمة السلم:

الدرجة الأولى: العزم على الاستفادة من الأيام العشرة؛ وذلك بوضع خطة – كما فعل سباستيان – عندما كان يأتي كل يوم لمدة شهر إلى المتجر ويخطط كيف يمكنه أن يأخذ ما يريد بأسهل الطرق، لذلك فنحن قبل أن تبدأ الأيام العشرة نجد أنه من الضروري أن نضع خطة، هذه الخطة بكل بساطة تعني ماذا يمكنني أن أفعل خلال هذه الأيام العشرة، وكيف يمكن أن أستفيد منها بأقصى قدرة وكل الإمكانيات.

الدرجة الثانية: مراجعة النفس والسلوكيات والأخلاق؛ خذ ورقة وقلمًا، ثم فكر في الوظيفة التي تشغلها – مثلاً – هل أنت مسؤول في مؤسسة، إن كنت كذلك فكيف تتعامل مع الموظفين، مع الموظف الفلاني، كيف تتعامل معه، هل أنت مسؤول عادي أم سيئ؟ كيف تتعامل مع الموارد، هل أنت مسؤول فاسد من الناحية الإدارية والمالية ؟ إن كنت صحفيًا فما الموضوعات التي تكتبها، هل تكتفي بمدح المسؤولين؟ إن كنت ولي أمر فهل أنت فعلاً ولي أمر لأطفالك أم أنت لا تعرف عنهم شيئًا، كل الذي تقوم به نهرهم والصراخ عليهم، ضع كل عاداتك وسلوكياتك وأخلاقك على الورق الذي أمامك، بكل صدق، فلا أحد سيقرأ هذه الورقة إلا أنت.

الدرجة الثالثة: مراجعة الحياة العملية؛ في ورقة أخرى اكتب ماذا قدمت في حياتك، ماذا قدمت لنفس وأهلك، ووالديك، ومن بقربك، ما الأفعال

التي قدمتها لوطنك ؟ ما إنجازاتك ؟ ضع حياتك كلها على الورق، فهل تشعر أنك ذو فائدة أم أنك رقم زائد في حياة البشرية ؟

الدرجة الرابعة: القرار الأول؛ بعد أن تعيد تقييم أخلاقياتك وسلوكياتك وحياتك، يمكنك أن تسأل نفسك، هل يمكنك أن تكون أفضل في بقية عمرك القادم ؟ كيف يمكنك مستقبلاً أن تتعامل مع الموظفين ؟ كيف تتعامل مع شريك حياتك وأولادك ؟ ما الإنجازات التي ترغب في تحقيقها في باقي حياتك، ضع أهدافًا لحياتك واكتبها وضعها أمامك في مكان يمكنك أن تراه كل يوم وذكر بها نفسك.

الدرجة الخامسة: العودة إلى اللّه سبحانه؛ فكر واستعمل عقلك وحواسك وقلمك وورقك، واكتب كيف كانت علاقتك باللّه سبحانه وتعالى، هل تصلي الفروض في أوقاتها أو في غير أوقاتها ؟ بمعنى هل تتحدث مع اللّه سبحانه من خلال الصلاة ؟ هل تصوم في رمضان على الأقل ؟ هل تتصدق وتزكي ؟ هل أنت على تواصل مع اللّه سبحانه من خلال قراءة القرآن، هل تسمعه وهو يتحدث معك ؟ هل تحمل أخلاقيات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الموجودة في القرآن الكريم، إن كنت كذلك فهذا أمر جيد، وإلا فما زال في الوقت بقية، وقد منحك عز وجل في هذه العشر من ذي الحجة الفرصة المناسبة لتعود، فهو مشتاق إليك، فهل أنت مشتاق إليه ؟

الدرجة السادسة: التخطيط للتنفيذ؛ بعد أن قمنا بالتفكير والتخطيط خلال الدرجات الماضية، الآن علينا وضع خطة لتنفيذ كل ما قمنا به، بالإضافة إلى التفكير في العبادات الخاصة بهذه الأيام خاصة صيام يوم عرفة، فهي سنة مؤكدة، مع التأكيد على النفس أنه ينبغي لها ألا تعود إلى تلك العادات السيئة أو الخاطئة التي كانت تفعلها قبل الأيام العشرة، أيًا كانت العادات أو السلوكيات، المهم أنك شعرت أنها سيئة، فالندم في حد ذاته توبة، والتوبة مقبولة في هذه الأيام.

يروى أن عبداللّه بن المبارك قال: "جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاثٍ على ركبتيه، وعيناه تذرفان فالتفت إليّ، فقلت له :من أسوأ هذا الجمع حالاً ؟ قال :الذي يظن أن اللّه لا يغفر له. وقال الأوزاعي: أدركت أقوامًا كانوا يخبئون الحاجات ليوم عرفة ليسألوا اللّه بها"، فيوم عرفة ذروة موسم الخيرات.

وبعد تلك الأفعال حتمًا ستصل إلى قمة السلم وترتوي روحك وفكرك برضا اللّه، عندئذ تكون في قمة الراحة النفسية والجسدية والمتعة، حينها لن يكون سباستيان أفضل منك.